البناءُ البلاغيُّ للمَثَلِ الناري والمَثَلِ المائي في سُورةِ البَقَرَة تَعميقًا وتناميًا

دكتور/ سلمان بن محمد بن حسن القرني
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
بكلية العلوم والآداب بالمخواة
جامعة الباحة

المثل الناري والمثل المائي في سورة البقرة

قال تعالى :
{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}(١٧){صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}(١٨){أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ}(١٩){يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٢٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله حمدًا لا يقتضي عددُه، ولا ينقطع مددُه، القائل في محكم التنزيل : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)[1] .

والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة؛ نبينا محمد وعلى إله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فإن من أجلِّ النعم التي يُوفق لها طالب العلم أن ييسر له المولى – عز وجل – سببًا يصله بلغة القرآن الكريم، ينهل من معينها، ويرتوي من عذب نميرها، فيفهم مراد كلام الله، ويعلم أيّ شيء جعل هذا الكلام نمطًا فريدًا من القول، أعجز أربابَ البلاغة وعظماءَ الفصاحة.

وعلم البلاغة من أسمى العلوم العربية، وأرسخها أصلاً، وأبسقها فرعًا، وأكرمها نِتاجًا، وأنورها سِراجًا، به تُدرَكُ أسرار الكتاب العزيز، وتُفهَم مقاصده.

وقد حظي القرآن الكريم بالعناية البالغة في الدرس البلاغي في مختلف أطواره التاريخية، فكان حظه وافرًا من التأملات والدراسات الي تنوعت مسالكها تبعا لتنوع مقاصدها.

لقد كان القران الكريم – ولا زال – المعجزة التي بقيت على مر الدهور، لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه.

ولما كان أسلوب التمثيل وسيلة من وسائل إيصال الفكرة إلى ذهن السامع بصورة وضيئة، وحلة قشيبة؛ كثُرَ المثل في القران الكريم في غير ما موضع.

وقد دلّت غير واحدة من الآيات القرآنية على أنّ الاَمثال سيقت للتفكر والاعتبار، في مثل قوله تعالى: (لَوْ أَنْزَلْنا هذا الْقُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصدّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الاَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفكَّرون)[2].

وقد حازت الاَمثال القرآنية على اهتمام البلاغيين، فطافوا حولها يتلمسون الأسرار البلاغية والبيانية، ويتتبعون مسالك الإعجاز الذي انتهجته في طريقها للمتلقي.

[1] سورة العنكبوت (٤٣)

[2] سورة الحشر (٢١)

وعليه فقد وجدتني ميالًا للبحث في بلاغة المثل القرآني، ومفاتشة أسرار هذا الأسلوب البياني العليّ، فعمدت إلى المثلين الواردين في سورة البقرة بشأن المنافقين أحاول طاقتي وأبذل جهدي في استنطاق الجماليات البنائية التي شكلت الصورة البلاغية.

والمرجو من هذا البحث ان يضيء جانبًا من بلاغة المثل القرآني، حين لفت نظري بلاغة هذين المثلين، وهما ما تعاقب أهل العلم على تسميتهما بالمثلين الناري والمائي.[1]

خطة البحث:

العنوان:(البناءُ البلاغيُّ للمَثَل الناري والمَثَل المائي في سورةِ البقرة؛ تعميقًا وتناميًا)

اقتضت طبيعة البحث أن يفتتح بالمقدمة، ثم التمهيد، تتبعه مطالب أربعة، ثم الخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة : وهي التي بين يديك.

توطئة : في المثل القرآني وبلاغته.

المطلب الأول: مفاصل المثل.

المطلب الثاني: (في التعميق)؛ نوع التمثيل من حيث الإفراد والتركيب.

المطلب الثالث: (في التنامي)؛ مفارقة التعددية، وميزان الأبلغية.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات.

منهج الدراسة :

سوف يكون منهج البحث ــ إن شاء الله تعالى ــ وفق المنهج التحليلي الوصفي الذي من شأنه أن يعتمد على التحليل البياني والبلاغي للآيات الكريمات مناط البحث والدراسة .

مع التأكيد أن البحث سوف يولي اهتمامه وتركيزه على الوسائل البلاغية التي ساهمت في البناء البلاغي وكيفية توظيفها في المثلين.

الدراسات السابقة :

حظي البيان القرآني ــ بصفة عامة ــ بقدر وافر من الدراسات البلاغية، غير أن بلاغة الأمثال القرآنية لا تزال ــ في نظري ــ في حاجة الى التنقيب والبحث

---

[1] ينظر: إعلام الموقعين ١/ ١٥٢، تفسير ابن كثير ١/١٩٢.

والمفاتشة، لا سيما في جوانبها التي تجمع بين وظيفتيها الإمتاعية و الإقناعية، وتتلمس مقصدية الامثال وغايتها التي حملتها قوالب البلاغة .

وبين تلك الدراسات من تطرقت للأمثال القرآنية بصفة عامة.

لكنني لم أجد دراسة خاصة حول هذين المثلين ــ مناط البحث ــ تفردهما بمفاتــشة بلاغية مستقلة، وتتأمل في البناء البلاغي لهما ، فلعل هذا البحث أن يكون أول طــارق لها من هذه الناحية.

والله أسال التوفيق والسداد، أنه ولي ذلك والقادر عليه.

توطئة : في المثل وبلاغته

ورد عند ابن فارس: "(مثل) الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرَة الشّيءِ للشيء. وهذا مِثْل هذا، أي نَظِيرُه، والمِثْل والمِثال في معنىً واحد".[1]

والمِثل – بكسر الميم – والمَثل – بفتح الميم : الشِّبْه ، والجمع: أمثال. وقد مثَّل به، وامتثله، وتمثله، وتمثل به، وقد يعبر بالمثل والشبه عن وصف الشيء؛ نحو قوله – تعالى –: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[2].[3]

بيد أن ما أورده ابن منظور يعد أبعد غورًا في تلمُّس مدلولات (المثل) وتحديد إطاره في سياقه القرآني، وذلك حين يسوق لنا حوارا ينتهي بأن (المثل) يأتي بمعنى (الصفة) في نحو مانحن فيه، إنه يقول:" قال عمر بن أَبي خليفة: سمعت مُقاتِلاً صاحبَ التفسير يسأَل أَبا عمرو بن العلاء عن قول الله عز وجل: (مَثَل الجنة)، ما مَثَلُها؟. فقال: فيها أَنْهار من ماءٍ غير آسِنٍ، قال: ما مثلها؟. فسكت أَبو عمرو، قال: فسأَلت يونس عنها فقال: مَثَلُها: صفتها".[4]

وتعاقب علماء التفسير ومعاجم العربية على هذا القول في تفسير (المثل) في مثل هذا السياق بمعنى (الصفة).[5]

يقول ابن عاشور في معرض تفسيره لهذين المثلين:" وأصل المثل بفتحتين هو النظير والمشابه... وقد اختص المثل (بفتحتين) بإطلاقه على الحال الغريبة الشأن؛ لأنها بحيث تمثل للناس وتوضح وتشبه".[6]

وقد استخدم اللغويون (المثل) بمعني التشبيه، وشاع هذا الاستعمال عند جمهرة العلماء. قال ابن رشيق: "التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه كُليةً لكان إياه".[7]

---

[1] معجم مقاييس اللغة :٢٩٦/٥

[2] سورة الرعد (٣٥)

[3] ينظر: القاموس المحيط ١٣٦٤/١

[4] لسان العرب (مادة: مثل)

[5] ينظر: تهذيب اللغة ٩٦/٥، تاج العروس ٣٨١/٣٠

[6] التحرير والتنوير ١/ ٣٣١، ٣٣٢

[7] العمدة ٢٥٢/١، وينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ١٦٨/٢.

وعلى هذا؛ فالتشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراكٌ في معانٍ، واختلافٌ في اشياء ينفرد كل واحد دون صاحبه.

وهنا يظهر من غير واحد من المعاجم أن للفظ المثل معاني مختلفة، كالنظير والصفة والشبيه وغيرها مما يستدعيه السياق.

وتكمن بلاغة الأمثال في أنها أقوى أساليبِ البيان، وأقدرها على التعبيرِ والتصوير؛ فهو "منزع جليل من منازع البلغاء، لا يبلغ إلى محاسنه غير خاصتهم"[1] ، وذلك لأنها تعتمدُ على التشبيهِ الذي هو من أشرف كلام العرب، وبه تكون الفطنة والبراعة.

ولأنه –كما يقول الإمام –: " يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، حتى يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المشئم والمعرق، وهو يريك للمعاني الممثلة بالأوهام شبهًا في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، وينطق لك الأخرس، ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد، ويريك التئام عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماء والنار مجتمعين"[2].

ومن ثم كان الغرضُ من التمثيل: تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، وإبراز المدركات المعقولة والمعاني الخفية في صورة محسة أو مألوفة؛ لبيانِ صفتها وحالها، أو تقريرِ معانيها، وتمكينها في النفس أو لبيان إمكان وقوعها وتحققها وغير ذلك من الأغراض.

وفي هذا السياق نجد الإمام يقول: "إنَّ أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تخرجَها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريحٍ بعد مكنيّ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم؛ نحو أن تنقلَها عن العقلِ إلى الإحساسِ، وعمَّا يُعلم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرارِ والطبع؛ لأنَّ العلمَ المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع، وعلى حدِّ الضرورة، يفضلُ المستفادَ من جهةِ النظر والفكر في القوةِ والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام"[3].

---

[1] التحرير والتنوير ١/ ٣٠٢

[2] أسرار البلاغة: ١٣٢

[3] السابق ١٢١

وتتفق رؤية البلاغيين مع رؤية المفسرين، فهذا الزمخشري يقول: " ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الأبي ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله وفشت في كلام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكلام الأنبياء والحكماء "[١].

ويهمنا أن نعرفَ أنه من الجوانبِ التي تفيضُ بالحكمةِ والإعجاز جانبُ الأمثال في القرآن الكريم؛ فقد صرف اللهُ في القرآنِ من كلِّ مثل، وضرب للنَّاس أمثالَهم، فكان ذلك لونًا من ألوانِ الدعوة، ووجهًا من وجوه البيان والكشف عن المعاني المرادة؛ وهي بهذا تُشكِّل جانبًا من جوانبِ حجة الله البالغة على خلقِه، الأمر الذي أهَّلَ الأمثال لأن تكون من أعظم علوم القرآن الكريم[٢].

وقد أورد الزركشي الغرضَ من ضربِ الأمثال في القرآن الكريم فقال: " وضربُ الأمثالِ في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر "[٣].

وإذا استقرأنا الأمثالَ القرآنية وجدنا أن مكوناتها قد صيغت من طبائعِ النفوس البشرية، ومن النواميسِ الكونية، ومن المظاهر الطبيعية والتي تعد أكثر التصاقًا بالإنسان؛ نظرًا لكون الطبيعة على خط تماس مباشر مع الإنسان حين تتسابُ إشعاعاتٍ وجدانيةٍ معه، في صور متنوعة تشرَّبت الحيوية والحركة[٤].

---

[١] الكشاف ١/ ١٠٩

[٢] ينظر: الاتقان في علوم القرآن ٣٣٧/٤

[٣] البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣٠

[٤] ينظر: جماليات التشخيص في التعبير القرآني ٤٣

المطلب الأول
مفاصل المثل

أولا : المثل الناري:

مفاصل المثل: أركانه، وما يتولد منها؛ أي الغرض من سوق المثل، وهو ما يتناولـــه هذا المبحث.

لقد استعير المثل في الآيات السابقة استعارة الأسد للمقدام للحال أو الصفة أو القــصة التي فيها غرابة وكأنه قيل: حال المنافقين العجيبة الغريبة كحال الذي استوقد نارًا[1].

ويتضح من تأمل السياق أن المشبه هو حال الذين آتــاهم الله ضـــربًا مـــن الهـــدى فأضاعوه ولم يتوصلوا به إلى نعيم الأبد، فبقوا متحيرين متحسرين، ويـــدخلُ المنـــافقون تحت هذا العموم، فإنهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم مـــن الحـــق، باســـتبطان الكفـــر وإظهاره حين خلوا إلى شياطينهم[2]. ويكون المشبه به هو حال الذي استوقد نارًا فلمـــا أضاءت له ما حوله انطفأ هذا النور، فبقي متخبِّطًا في الظلمات.

وإذا كانت أداة التشبيه هي (الكاف)، فإنَّ وجه الشبه يكون التخبط والحيرة والتحـــسر بعد فوات ما كان موجودًا حاصلًا.

وهنا مُثِّلتْ الجماعة بالواحد؛ لأن (الذي) هنا في موضع (الـــذين)، كقولـــه تعـــالى: (وخضتم كالذي خاضوا فيه).

"على أن المنافقين وذواتهم لم يُشبَّهوا بذات المستوقِد حتى يلزمَ منه تـــشبيهُ الجماعـــةِ بالواحد، إنما شُبِّهتْ قصتُهم بقصة المستوقد"[3].

ويحسن أن نقف على شيء من البناء البلاغي الذي تشكَّل به المثلان، ونهـــضت بـــه الصورة، مفردةً وتركيبًا، ومن ذلك ما نجده في قوله تعالى: ((ذهـــب الله بنـــورهم))، إذ كان ظاهر الكلام أن يُقال: (ذهب نورهم) أو (أذهب الله نورهم)، لكن الأسلوب القرآني عدل عن هذا وذاك.

وليس بخافٍ عليك – ابتداءً – معنى المبالغة في الفعل (ذهب) حينما أُسند إلى لفـــظ الجلالة (الله)، ثم زِيْدَ هذا المعنى حينما عُدِّي الفعل بالباء دون الهمزة (أَذْهَـــبَ)، وذلـــك

---

[1] ينظر: الكشاف ١/١٠٩

[2] ينظر: أنوار التنزيل واسرار التأويل ١/١٨٦

[3] الكشاف ١/١١٠

لما في (الباء) من معنى الاستصحاب والاستمساك، وبيان ذلك أنه لو قيل: ذهب الشيء، فمعناه ذهب إلى رجعة أو الى غير رجعة، وأما لو قيل: ذهب فلان بالشيء، فأن معناه استصحبه معه، ومنعه من الرجوع لحالته الأولى.

فكيف إذا كان الذاهب به هو الله سبحانه وتعالى؟!.

و(النور) أبلغ من (الضوء) فيما لو قيل: ذهب الله بضوئهم؛ لأنه لو قيل هذا؛ لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورًا، وهو خلاف الغرض الذي سيق المثل من أجل تقريره، وهو إزالة النور عنهم رأسًا وطمسه أصلًا[1].

ومن الأساليب البلاغية التي اشتمل عليها المثلان أسلوب الإلتفات، فقد صُدِّر المثل بجمع ضمير (مَثَلُهُمْ)، ثمّ أفرد في (اسْتَوْقَدَ)، و(حَوْلَهُ)، ثمّ عاد إلى جمع الضمّير (بِنُورِهِمْ) وفي (تَرَكَهُمْ)، والالتفات من أساليب إثارة المتلقي وتجديد نشاطه لحسن التلقي.

ثم إنك تشهد معنى التحقير والإهانة في الترك والطرح الذي تفيض به كلمة (وتركهم).

وقد توقف ابن عاشور يتلمس السر البلاغي في تعقيب قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم) بقوله تعالى: (وتركهم في ظلمات)؛ فقال" "هذه الجملة _ يقصد وتركهم..._ تتضمن تقريراً لمضمون (ذهب الله بنورهم)؛ لأن من ذهب نوره بقي في ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها، فإن للدلالة الصريحة من الارتسام في ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية فإن قوله (ذهب الله بنورهم) يفيد أنهم لما استوقدوا ناراً فانطفأت انعدمت الفائدة وخابت المساعي، ولكن قد يذهل السامع عمَّا صاروا إليه عند هاته الحالة، فيكون قوله بعد ذلك : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) تذكيراً بذلك وتنبيهاً إليه ، فإنهم لا يقصدون من البيان إلا شدة تصوير المعاني، ولذلك يطنبون ويشبهون ويمثلون ويصفون المعرفة ويأتون بالحال ويعددون الأخبار والصفات ،فهذا إطناب بديع"[2].

وقوله تعالى : (صم بكم عمي) من التشبيه البليغ، أي هم كالصم والبكم والعمي، "صم (أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه، (بكم) أي

[1] ينظر: الكشاف ١١١/١

[2] التحير والتنوير ٣١٠/١

خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه، (عمي) أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ومن لا بصيره له كمن لا بصر له، فهو أعمى, كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم وأن ينظروا إليه بعيونهم جعلوا كمن تعطلت حواسه وذهب إدراكه، قال الشاعر:

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء كلهم أذن"[1].

ومعنى لا يرجعون أي لا يعودون إلى الهدى، أو أنهم في تردد يتقدمون أم يتأخرون.

وبهذا يتضح المشبه، وهو حال المنافقين في عدم استفادتهم من نور الإيمان. والمشبه به، وهو المستوقد نارا التي لما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم.

ثانيا :المثل المائي:

يقول الألوسي في تعقيب المثل الأول بمثل آخر: إنه "شروع في تمثيل حالهم إثر تمثيل، وبيان لكل دقيق منها وجليل، فهم أئمة الكفر الذين تفننوا فيه... بعد أن طاروا إليه بقدامى النفاق وخوافيه، فحقيق أن تُضرب في بيداء بيان أحوالهم الوخيمة خيمة الأمثال، وتمد أطناب الإطناب في شرح أفعالهم، ليكون أنعى لهم، ونكالاً بعد نكال، وكل كلام له حظ من البلاغة وقسط من الجزالة والبراعة لا بد أن يوفى فيه حق كل من مقامي الإطناب والإيجاز، فماذا عسى أن يقال فيما بلغ الذروة العليا من البلاغة والبراعة والإعجاز؟ ولقد نعى سبحانه عليهم في هذا التمثيل تفاصيل جناياتهم العديمة المثيل"[2].

وهكذا فإن حال هؤلاء المنافقين استدعى بسط القول

"والتقدير في العربية: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا.. أَوْ مَثَلُهُمْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ، أي: مثلهم كمثل هذا.. أو مثلهم كهذا. فأضمر (مَثَلُهُمْ) الثانية بعدَ (أَوْ) لدلالة (مَثَلُهُمْ) الأولى عليها"

---

[1] تفسير الخازن ٣٦/١، والبيت ينسب لقعنب بن أم صاحب كما في لسان العرب (٤٣٤/٤)، والصحاح في اللغة (٨/١)، ويروى: كلهم أَذِنوا.

[2] روح المعاني ١٨٧/١

وأما الصَّيِّب فهو كما قال الزمخشري: المطر الذي يصوب، أي ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيب. ونُكِّر (صيب) هنا للتهويل والتعظيم[1].

وذهب الزمخشري إلى أن تعريف السماء في الآية جاء لينفي أن يتصوب المطر من أفق واحد، بل من كل الآفاق.

وتبعه في ذلك أبو السعود، والبيضاوي. وفي (روح المعاني): "السماء هنا الأفق، والتعريف للاستغراق"، ولكن صاحب (التحرير والتنوير) يستبعد ما مضى في سبب تعريف (السماء)، ويستظهر أنه ليس بقيد للصيب، وإنما هو وصف كاشف جيء به لزيادة استحضار صورة الصيب في هذا التمثيل إذ المقام مقام إطناب كقول امرئ القيس[2]:

كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ

فإنه معلوم لدى السامع أن السيل لا يحط جلمود صخر إلى من أعلى ولكنه أراد التصوير.

ومهما يكن؛ فإنَّه صيّب منهمر فيه ظلمات التكاثف والغمام والليل، وفيه كذلك رعد وبرق، فنحن أمام صورة ظلمات داجية، ورعد قاصف، وبرق خاطف يكاد أن يخطف أبصارهم فيجعلون أناملهم في آذانهم.

وذكر (الأصابع) للمبالغة ، وإلَّا فالمراد الأنامل ، وهذا ما يسميه البيانيون مجازا مرسلا، علاقته الكلية، حيث أطلق الكل (الأصابع) وأراد الجزء (الأنامل).

قال ابن عاشور:" فعبر عن زواجر القران بالصواعق وعن انحطاط قلوب المنافقين وهي البصائر عن قرار نور الايمان فيها بخطف البرق للأبصار"[3]. والخطف هو الأخذ بسرعة.

وقوله تعالى :(كلما أضاء لهم) تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادف من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم فاذا خفق خطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي لمعانه

---

[1] ينظر: الكشاف ١/ ١١٥

[2] ديوانه (٣٢)، وهو من معلقته ، وصدره : مِكر مِفر مُقبلٍ مُدبرٍ معًا

[3] التحرير (٣١٩/١)

وقفوا، ولو شاء الله لأصمهم بقصف الرعد ولأعماهم بضوء البرق، ولكن الله لـم يـشأ ذلك إمهالا لهم، وفيه تهديد وزيادة تذكير وإبلاغ وقطع لمعذرتهم في الدنيا والاخرة.

ومما مضى يتضح بناء التشبيه وتكوينه، فالمشبه هنا: حـال المنـافقين الـذين لـم ينتفعوا بما بين أيديهم من المواعظ ولم يلتفوا إلى النذر من وعد ووعيد، بـل أضـاعوا ذلك كله.

والمشبه به كما هو بين: حال من أحاط بهم مطر عظيم متكاثف فيه ظلمات كثيفـة ورعد وبرق يحدثان الخوف والرهبة والخشية فيجعلون أصابعهم في آذانهم فـي حـين أنهم يلتمسون فرصة لمعان البرق ليتقدموا خطوة واحدة.

وأداة التشبيه هي الكاف. ووجه الشبه هو: حال التخبط والتحير وغاية الجهل بما يأتون وما يذرون.

وإنك ترى أن كل مفردة في هذين المثلين كان لها مددها المعنوي الذي أسـهم فـي البناء الكلي للصورة،

فـ "إنَّ من اساس البلاغة الذي به يبرق حسن الكلام؛ تجـاوب الهيئـات، وتـداعي القيود، وتآخذها على المقصد الاصلي، وإمداد كلٍّ بقدْرِ الطاقـة للمقـصد، الـذي هـو كمجمع الأودية أو الحوض المتشرب من الجوانب"[1].

---

[1] إشارات الإعجاز ٤٠

المطلب الثاني
(في التعميق) نوع التمثيل من حيث الإفراد والتركيب

علم مما سبق كيف بُني التشبيه، وأركانه التي نهض بها، ولعل هذا المبحث أن يقف عند نوع التشبيه من حيث الإفراد والتركيب .

ومعلوم أن المفرد هو ما كان المشبه فيه مفردًا وكذا المشبه به، وأنَّ المركب ما كان المشبه فيه منتزعًا من صورتين أو أكثر وكذلك المشبه به، فالتشبيه هنا جمعًا للصور التشبيهية التي ركبت مع بعضها.

فأما هذان التمثيلان فقد تناول نوعه المفسرون، فلقد صرح الزمخشري بأنه من جملة التمثيلات المركبة دون المفرَّقة، ووصف هذا القول بأنه القول الفحل والمذهب الجزل[1].

وذهب البيضاوي هذا المذهب إذ يقول: "إنَّ التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلَّفة، وهو أن يُشبَّه كيفية منتزعة من مجموعة تضامت أجزاؤه وتلاصقت حتى صارت شيئًا واحدًا بأخرى مثلها "[2].

وتعاقب المفسرون على اعتبار هذا القول[3].

وعلى هذا فقد أجمع العلماء على نوعية هذين المثلين، واتفقوا على أنهما من قبيل التشبيهات المركَّبة التي يكون فيها المشبه والمشبه به كل منهما منتزعًا من صور شتى، وهذا بيِّن وجلي في هذين المثلين .

وإذا كان الإجماع قد انعقد على نوعية المثلين فقد اختلفت عبارات العلماء –رحمهم الله – في صلاحية فك هذا التشبيه المركب إلى مفرد.

ففي حين نجد الزمخشري يقول: "فأما أن يُراد تشبيه الأفراد بالأفراد، غير منوط بعضها ببعض، ومصيره شيئًا واحدًا؛ فلا "[4]؛ فأننا في السياق نفسه نجد البيضاوي يقول: "ويمكن جعلها من قبيل التمثيل المفرد، وهو أن تأخذ أشياء

---

[1] ينظر: الكشاف ١/١١٤

[2] أنوار التنزيل واسرار التأويل ١/٢٠٦

[3] ينظر: إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ١/ ٥٢ ،

[4] الكشاف ١/١١٥

فرادى فتشبهها بأمثالهـا، كقولـه تعـالى: ((ومـا يـستوي الأعمـى والبـصير. ولا الظلمات ولا النور))[1].

وقول امرئ القيس[2]:

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رطبًا ويابسًا لدى وكرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

بأن يشبه في الأول ذوات المنافقين بالمستوقدين، وإظهارهم الايمان باستيقاد النار... وفي الثاني أنفسهم بأصحاب الصيب، وإيمانهم المخالط بالكفر والخـداع بـصيب فيـه ظلمات ورعد وبرق..."[3].

هذا رأي البيضاوي، وتبعه في هذا ابن عاشور، فبعد أن أكد أنَّه من التشبيه المركب عقَّب قائلًا: "وهو مع ذلك قابل لتفريق التشبيه في مفرداته إلى تشابيه مفردة، بأن يـشبه كل جزء من مجموعة الهيئة المشبهة لجزء من مجموع هيئة قـوم أصـابهم صـيب"[4]. وعلى هذا فرأي ابن عاشور جواز فك هذا المركب ليصبح مفردا، وعليه فـنحن أمـام رأيين.

الأول: للزمخشري ومن سار معه إذ يرى أنه مركب، ولا يرد مفردًا.

والثاني: للبيضاوي وابن عاشور ومن وافقهم فيقرون أنه مركب، ولكنه قد يـرد مفـردًا مفرَّقًا كما تقدم.

بيد أن القول الفصل، والرأي الأولى بالاتباع؛ هو ما ذهب إليه أبو السعود فقد فـصَّل –رحمه الله –المسالة تفصيلًا مقنعًا حينما قال: "واعلم أنَّ كل واحد مـن التمثيلـين وإنْ احتمل أن يكون من قبيل التمثيل المفرق ... لكن الحمل على التمثيل المركب الـذي لا يعتبر فيه تشبيه كل واحد من المفردات الواقعة في أحد الجانبين بواحد مـن المفـردات الواقعة في الجانب الأخر على وجه التفصيل بل ينتزع فيه من المفردات الواقعـة فـي جانب المشبه به؛ هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل، ويـستدعيه فخامـة شـأنه الجليـل،

---

[1] سورة فاطر(١٩- ٢٠)

[2] ديوانه ١١٠

[3] أنوار التنزيل واسرار التأويل ٢١٤/١

[4] التحرير والتنوير ٣٢٠/١- ٣٢١

لاشتماله على التشبيه الأول إجمالًا، مع أمر زائد هو تشبيه الهيئة وايذانه بـان اجتمـاع تلك المفردات مستتبع لهيئة عجيبة حقيقة بأن تكون مثلا في الغرابة"[1].

إذاً فرأي أبي السعود ينص على أن جزالة التنزيل، وفخامة شأنه الجليل؛ تـستدعي أن يكون مركبًا.

والحق أن القلب يرتاح إلى هذا القول، وأن النفس تطمئن إليه.

[1] إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ٥٧/١

المطلب الثالث

(في التنامي) مفارقة التعددية، وميزان الأبلغية

التمثيل الثاني عطف على الأول، وهنا أُعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر، وعطفُ تشبيهٍ على آخرٍ واردٌ في استعمالات العرب.

يقول امرؤ القيس[1]:

أصــاحِ ترى برقًا أُريكَ وميضَه   كلمعِ اليدينِ في حَبيٍّ مكلَّلِ

يُضيءُ سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ   أمالَ السليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ.

والعطف هنا في المثلين بالواو للتسوية أي أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مُخيَّر في التمثيل بهما، أو بأيِّهم شئت.

وقدَّم المثل الأول لأنه كالجزء من الثاني؛ فالأول تشبيه للمنافقين بالمستوقد نارا، والثاني تشبيه هيئتهم وحالهم بحال من أصابهم صيِّب عظيم.

وبلاغة المقال تقتضي ان يُطنب القول الحكيم في وصف حال المنافقين، " ليعم البيان منها كل دقيق وجليل، ويوفي حقها من التفظيع والتهويل، فإن تفننهم في فنون الكفر والضلال وتنقُّلهم فيها من حال إلى حال؛ حقيق بأن يضرب في شأنه الأمثال، ويرخي في حلبته أعنَّة المقال، ويمد لشرحه إطناب الإطناب، ويعقد لأجله فصول وأبواب"[2].

جاء في (نظم الدرر) للبقاعي حول تعدد المثل في شأن المنافقين:" ضرب لهم مثلين لما كان لهم حالان، وللقرآن عليهم تنزلان، منه ما يرغبون فيه لما فيه من مصلحة دنياهم ... ومنه ما يرهبونه ولا يستطيعون سماعه لما يتضمنه من أمور شاقة عليهم لا يحملها إلا مؤمن حقاً"[3].

وهنا تظهر المفارقة البديعة في الجمع بين النار والماء لتشبيه شيء واحد، وكان داعيها هو السبب نفسه لتعدد المثل في شأن المنافقين وذلك لتعدد أحوالهم مع ما جاء به الإسلام والقرآن، وعد استقرارهم على حال واحدة، فاقتضت بلاغة القول الحكيم أن يتعدد المثل في شانهم كذلك .

---

[1] ديوانه ٣٧

[2] إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ٥٢/١

[3] نظم الدرر ٥١/١

والمثلان كلاهما من بديع البلاغة وروائع القران الكريم لكن الثاني أبلغ من الأول لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته على المنافقين، فالصورة فيه أشد وأعظم من الصورة في الأول.

يقول الزمخشري:" فإن قلت: أي التمثيلين أبلغ، قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة، وشدة الأمر، وفظاعته، ولذلك أُخر، وهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ"[1].

وكلا المثلين اتكأ في سرد مقصده على الأسلوب القصصي، فنهضت الصورة البيانية في بناء قصصي، والقصة في القرآن واسطة بيانية تبليغية لناموس سماوي غايته تجذير العقيدة، وتعبير ما بالنفوس من جهالة وشرك، حيث اصطبغت بخصائص أدبية التبليغ القرآني من حيث القوة البيانية، والانسجام التعبيري، والملاءمة الموضوعية للسياق الذي وردت فيه[2]، فجمعت بين الإمتاع والإقناع.

---

[1] الكشاف ١/١١٥

[2] ينظر: الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ٦٩

الخـــاتمــــــة:

وفي خاتمة هذا البحث يجمل بنا أن نجمل أبرز ما جاء فيه في النقاط الآتية:

١-إن المثل من وسائل الإيضاح والتقرير فهو أوقع في القلب، وأقوى في النفس، يريك المتخيل قريبًا والمعقول محسوسًا.

٢- إن المثلين الواردين من الأمثلة المركبة، اقتضت ذلك بلاغة التنزيل، وفخامة شأنه الجليل.

٣- تعدد المثل في شأن المنافقين لتعدد أحوالهم، وتقلب اتجاهاتهم، وهو ما استدعى المفارقة في الجمع بين النار والماء على هذا التمثيل، وفيه تدرج من الأهون إلى الأغلظ.

٤- المثل الثاني أبلغ من الأول؛ لفرط الحيرة فيه، وشدة الأمر وفظاعته على المنافقين.

٥- اشتمل المثلان على فنون بلاغية أسهمت في تماسكه وأبرزت بلاغته، كالإيجاز والالتفات، وغيرها من فنون البلاغة التي قامت بدورها في البناء البلاغي للمثلين.

٦ – ساهمت كل المكونات في النهوض بالصورة على مستوى البنية و التركيب، كل حسب طاقته وحمولاته المعنوية والإيحائية.

٧- وظَّف القرآنُ الكريمُ القصةَ في مجال الدعوة، فصيغ المثلان في أسلوب قصصي جمع بين الإقناع والإمتاع، مع قوة البيان، والانسجام التعبيري، والتناسب والمقصد العام.

المصادر والراجـــع:

- القرآن الكريم.
- الاتقان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركـــشي (٧٩٤هــــ)، المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة : الأولى ، الناشر : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٣٧٦ هـــ - ١٩٥٧ م.
- إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم لابي السعود محمد بـــن محمـــد العمـــادي، ت ٩٥١ه،ـــ دار إحياء التراث بيروت.
- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني(٤٧١ه)، قرأه وعلق عليـــه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، الطبعة الأولـــى ١٤١٢ه، ١٩٩١م.
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان سعيد النّورسي، تحقيق: إحسان قاســم الصالحي، تقديم: د. محسن عبدالحميد، جامعة بغداد.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين ،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيـــق : طه عبد الرؤوف سعد ،دار الجيل – بيروت ، ١٩٧٣.
- أنوار التنزيل واسرار التأويل للبيضاوي دار الفكر، بيروت.
- البرهان في علوم القرآن، بدر تالدين محمد بن عبد الله الزركـــشي (٧٩٤)، قـــدَّم لـــه : مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٢ه،٢٠٠١م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الـــرزّاق الحـــسيني الملقّـــب بمرتضى الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، السداد التونسية للنشر.
- تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ٧٧٤ هـــ، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة : الثانية، ١٤٢٠هـــ - ١٩٩٩م.
- تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بـــن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، دار النشر : دار الفكر – بيروت / لبنان، ١٣٩٩ هـــ /١٩٧٩م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠ه)، تحقيـــق محمـــد عـــوض مرعب، إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠١م.

- جماليات التشخيص في التعبير القرآني، كزنك صالح رشيد، عالم الكتب الحديث، الأردن– إربد، الطبعة الأولى،٢٠١١م.
- الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، د. سليمان عشراتي، دار العرب، دمشق، ٢٠١٢م
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: حجر عاصي، دار الفكر العربي، بيروت ، الطبعة الأولى،١٩٩٤م.
- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني للعلامة الالوسي البغدادي (٨٨٥هـ) مكتبة ابن تيمية القاهرة، الطبعة الرابعة.
- الصحاح في اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ)،تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابي على لحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، ١٤٢٤ – ٢٠٠٤م.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (٨١٧ه)، مؤسسة الرسالة ، بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل لابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ).
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر : دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. احمد مطلوب، مطبعة المجتمع العلمي العراقي ،١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق : عبد السلام محمد هارون، الناشر : دار الفكر، الطبعة : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.